IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية
مجلة كلية الكوت الجامعة للعلوم الإنسانية
ISSN (E): 2707 – 5648 II ISSN (P): 2707 – 563x
www.kutcollegejournal1.alkutcollege.edu.iq
k.u.c.j.hum@alkutcollege.edu.iq
المجلد 5 ، العدد 1 ، حزيران 2024

غسل العار وقضايا الشرف في نماذج من روايات لطفية الدليمي

رضوان كاظم انهيب [1] ، أ.د. زينب هادي حسن [2]

المستخلص

يهدف البحث إلى التعرف إلى جرائم الشرف (غسل العار) ضد المرأة وآثارها على المجتمع العراقي من وجهة نظر الباحثة في سردها الروائي، وبيان الأسباب التي تؤدي الى تفشي هذه الظاهرة في مجتمعنا العراقي فضلاً عن المجتمعات الاخرى. وكذلك الاثار الناتجة عن العنف ضد المرأة غسلاً للعار، وتمثلت الآثار بالآثار النفسية، والاجتماعية . استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وقدمت الدراسة مجموعة من التوصيات أهمها الاهتمام بالجانب النفسي للضحايا اللواتي تعرضن للعنف (غسل العار)، كذلك الاهتمام بالجانب الاجتماعي للمعنفات ، وايجاد حلول تلائم وضعهن ، وذلك تخفيفًا من هذه الآثار .

الكلمات المفتاحية : جرائم الشرف، العنف، الآثار النفسية، المرأة

انتساب الباحثين
[1، 2] كلية التربية الاساسية،الجامعة المستنصرية العراق، بغداد، 10064

[1] rdwankazm003@gmail.com
[2] Dr.zainabhaddy@gmail.com

[1] **المؤلف المراسل**

معلومات البحث
تأريخ النشر : حزيران 2024

Washing Shame and Honor issues in Models from the Novels of Lutfia Al-Dulaimi

Radwan Kazem Anheeb [1] , Prof. Dr. Zainab Hadi Hassan [2]

Abstract

This research aims to identify honor crimes (washing shame) against women and their effects on Iraqi society from the writer's point of view in her narrative, and to identify the reasons that lead to the spread of this phenomenon in our Iraqi society as well as other societies. As well as the effects of violence against women washing the shame, and the effects of psychological and social effects. The study used the descriptive analytical approach, and the study made a set of recommendations, the most important of which is to pay attention to the psychological aspect of victims who have been subjected to violence (washing shame), as well as attention to the social aspect of the battered women, and to find solutions that suit their situation in order to mitigate these effects.

Keywords: Honor killings, Violence, Psychological Effects, The Woman.

Affiliation of Authors
[1, 2] College of Basic Education, Univ. Al-Mustansiriya, Iraq, Baghdad, 11064

[1] rdwankazm003@gmail.com
[2] Dr.zainabhaddy@gmail.com

[1] **Corresponding Author**

Paper Info.
Published: June 2024

المقدّمة:

الحمدُ للهِ رب العالمين والصّلاةُ والسّلامُ على سيدنا وحبيبنا محمد الأمين وعلى آلهِ الغُرّ الميامينَ.

تعددت أشكال العنف ومفاهيمه ، من فرد واحد (شخص ما) أو جماعة (مجتمع) ضد الكائن الأضعف قدرة والأقل مكانة (المرأة)، وعلى الرغم من التغييرات التي طرأت على أوضاع المرأة في العالم إلا أنّ طبيعة العلاقة التي تحكم علاقة المرأة بالأخر فرد او جماعة لا تزال تحكمها علاقات القوة والهيمنة التي هي متجذرة تاريخياً مع نشأة الملكية الخاصة في ظل الانظمة الذكورية المتسيّدة التي منحت السلطة المطلقة للرجل، وفرض قيود على المرأة وأخضاعها بالقوة لسلطته، في ظل القوانين التي وضعها الرجل التي تحكم المرأة في مختلف المجتمعات الانسانية والتي تؤكد الفكرة القائمة على أنّ المرأة والأبناء هم ملكٌ للرجل وله الحق المطلق و الحرية الكاملة للتصرف بهما. الأمر الذي أفرز صورً شتى من العنف والقهر الاجتماعي ضد المرأة،

أشارت الدراسة بصورة عامة الى المرأة المعنفة التي تتعرض لصور وأنماط العنف المختلفة منها الجسدي ، والرمزي، والجنسي، والنفسي . وهذه الانماط وجدت في جرائم الشرف (غسل العار) والتي عانت منها المرأة جسدياً وجنسياً ونفسياً واجتماعياً .

وجاءَ البحثُ متمثلًا بتعريفٍ لجرائم الشرف بيّنْتُ فيه مفهومَ غسل العار وصوره، وأثره، والدوافع والأسباب التي أدت اليه، ومبحث تحدثْتُ فيهِ عن تجليات هذا النمط من العنف وفقًا لما وجدْتُهُ من تَمثُّلاتٍ في روايات الكاتبة العراقية لطفية الدليمي، ثم الخاتمة والهوامش والمصادر.

غسل العار وقضايا الشرف

يـعّد غسل العـار أو "جريمة الشـرف" بـ(إقـدام رجُلٍ على قتـل امرأةٍ من عائلته؛ بسبب مسلكها، أو لشبهةٍ، أو تهمة إقامتها علاقـةً عاطفيـة، أو جنسيةً مع رجُلٍ غريب؛ لأن هذا الفعل يُلحق العار بها وبعائلتها، مع اعتقاد القاتل أنّه لا يمكن إزالة الاثـار الاجتماعيّة لهذا الفعل إلاّ عن طريق القتـل) [1].

فقتل النساء غسلا للعار واحد من أكثر الممارسات انتشاراً في مجتمعاتنا العربية والتي يصعب القضاء عليها وذلك بسبب العادات والأعراف القبلية والثقافة التي لا تؤمن باستقلالية المرأة وتميل لإقصائها وعزلها والحد من حريتها كما انّ الدافع الرئيس والحقيقي للشروع بجريمة القتل المسماة بجريمة الشرف هو دافع اجتماعي يعكس المفاهيم الراسخة في المجتمع التي تحظى بالاحترام والتقديس، (إن اضطهاد المرأة وتهميشها لم يكونا في الحقيقة والواقع بسبب العامل البيولوجي أو الديني أو النفسي، وانما بسبب العوامل الاجتماعية والطبقية والأعراف والقيم الذكورية التي تنتج عن مصالح الرجل في الهيمنة والاستحواذ بها وإخضاعها لمشيئته، وهو أساس عدم المساواة بين الجنسين والصراع الأزلي بينهما)[2]. وبرغم مما حققته بعض النساء وما نالته من حقوق مدنية في التعليم والتربية والثقافة والمشاركة في عمليات التنمية بفضل عناصر التحديث والتقدم الاجتماعي، إلا أنّه لم يظهر عليها تغير نوعي عميق وواضح في وعيها وفي ممارساتها اليومية، لا في العائلة ولا في الثقافة والمجتمع، وما زالت قِيمُ الشرف الطاغية ترتبط بالأعراف والعصبيات العشائرية وكذلك بالنظرة إلى الجنس بصورة عامّة وإلى المرأة بصورة خاصة، كذلك القِيم التي ترتبط بالزواج والطلاق وحرية اختيار الزوج وصنع القرار وغيرها، ومسؤولية النساء بالالتزام والانصياع لتقاليد والأعراف الاجتماعية والمحافظة على شرف العائلة وسمعتها. وبالمقابل، فمن واجب الرجل مراقبة تصرفات النساء وضبط سلوكهن والدفاع عنهن وحمايتهن. وقد يصل الامر أحياناً إلى القتل غسلاً للعار، كما يحدث في اغلب مجتمعاتنا العربية وهو عمل إجرامي يثير الضمير الإنساني لأنه غالباً ما يكون القتل بالشبهة. ومن جهة أخرى، لماذا لا يُعاقَب الرجل ولا يُرفع في وجهه سلاح "القتل غسلاً للعار"حين ينحرف؟ أليس هذا أفدح تمييز بين الجنسين [3].

وغالباً ما يسود اعتقاد خاطىء في كثير من المجتمعات العربية والاسلامية عن جرائم بدافع الشّرف "غسل العار"، أن هذه الجرائم ترتبط بالدين، وتستمد الحماية منه، والحقيقة أنها ترتبط بمفاهيم اجتماعية لا علاقة للدين بها.[4] والدين الإسلامي لم ينص على شيء يدعو او يلمح الى جواز قتل المرأة، وانْ كانتْ تلك الجرائم تحدث بنسبةٍ اكبر في الدول الإسلامية من الدول الأخرى، (الجرائم التي تُرتكب بأسم الشّرف موجودةٌ بين أبناء الأديان والعقائد كافّةً؛ إذ تحصل الجريمة بين المسيحين، والمسلمين، والهندوس، والبوذّيين، وتوجد كذلك بين الآخرين الذين لا يؤمنون بعقيدةٍ معيّنةٍ، ومن غير المتديّنين، وبعبارةٍ أُخرى يمكن عدّ ذلك من التقاليد، وليس نتيجة إيمان الفرد بدين معين) [5].

لا شك أنّ "جريمة الشرف" تسميةٌ نبيلة لِفعل خَسِيس؛ لهذا (لا يمكن لجريمة القتل غسلاً للعار أن تمحو العار، جَريمةُ قَتْلَ الفتاة تفاقِمُ من صَدى الفضيحةِ، وتكشف ما كان مَسْتورا؛ وَهْمٌ كَبيرٌ أنْ يُستعاد شَرَفٌ مَهْدُورٌ بدمٍ مَسْفوك)[6]، فالمندفع الى القتل يظّن انه غسلَ عار العائلة بسفك دمها، فغسل العار لا يغسل إلا كلام الناس من دون محوها من الذاكرة، فالذاكرة تبقى تلاحقهُ بعارها، والدافع للقتل بقوانين القبيلة هو مُجرد إرضاء لبعض ابناءها واسكات لألسنة الناس، فـ (القوانين الاجتماعية "القبلية" في كل العصور والعهود لم تكن تسري إلا على المحكومين لا الحكام، وعلى النساء لا الرجال، والفقراء لا الأغنياء، وقد ساعدت هذه القيم بقيودها على الجسد والعقل ان تخضع للحكام والمستبدين والمستعمرين الأغلبية الساحقة من شعوب العالم نساء ورجالاً) [7].

ففي معظم الحالات تتم ظاهرة "غسل العار" على حساب المرأة دون الرجل، بمعنى آخر لم يلحق الرجل أي ضرر كما يلحقها من القتل بوسائل مختلفة وبشعة كالذبح او الخنق أو اطلاق الرصاص على الرأس او دفنها وهي على قيد الحياة وقد ترتكب علناً امام مرأى حشد من الناس، او قد ترتكب بالسر والكتمان الشديد والدافع في ذلك هو الاعتقاد بالحفاظ على شرف واسم العائلة، فدافع القتل في جرائم الشّرف دائماً هو الإحساس بالعار، وتضخيم أمرٍ ما في الوعي النفسيّ الذي يُحرّك الانسان نحو تنفيذ جريمته، وهذا مردّة إلى المحيط الاجتماعيّ الجاهل إنسانياً واجتماعياً، وحقوقياً، وهذا المحيط الاجتماعي يُشكّل تحريضا قوياً للدفع نحو اقتراف الجريمة؛ حيث يعتقد الرجُل أنّ قتل المرأة سيمحو الشوائب من صفحة الشّرف التي تلوّثت، علماً بانّه في معظم الحالات يؤدّي قتل الفتاة

للدافع الشّريف، أو غسلاً للعار إلى انتشار الفضيحة، عوضاً عن بتر الالسن التي تلوك سمعة العرض المستباح أو استعادة الشّرف المفقود، إذْ إنّ فظاعة جرم الذبح، وخبر القتل، تجعل القصّة تنتشر في الأوساط كلّها مثل انتشار النار في هشيمٍ يابسٍ في يومٍ عاصف، فتزداد الفضيحة عوضاً عن وَهمْ مسح العار [8].

ولهذا كانتْ (فكرة امرأة مراهقة عازبة فكرة جديدة في العالم الإسلامي فأي انثى طفلة كانت أم شابة أدركها الطمث يجب تزويجها في الحال دفعاً لعار متوقع وبقائها دون زواج امر غريب في نظام الاسرة المسلمة ويتعذر تخيله وتصوره دون ان يربط بالفتنة هذا المفهوم السائد حيث كان شرف الاسرة قائماً على فكرة العذرية وكان مفهوم المرأة لا يتعدى ذلك البعد الجنسي ويقتصر على الانجاب من خلال الزواج المبكر لها).[9] ومفهوم شرف المرأة له معنى محدد وواضح وهو غشاء البكارة والجنس، ولان شرف الرجل يتسع لكل المعاني، ويختزن كل الاحتمالات، لذلك فهو واسع كالمحيط وغامض كالشبح، فالمرأة غير الشريفة هي التي تفرط في عرضها، أما الرجل غير الشريف فهو السارق او النصاب وما عدا ذلك فهو شريف ولو مارس الجنس مع ثلاثة أرباع نساء الكرة الأرضية، فسيظل شريفاً عفيفاً لا تلوثه هذه العلاقات الكثيرة [10]، فالمجتمع العربي متمسك بهذا المقياس الواهي والسطحي للأخلاق والشرف الى حدّ يُعفى الرجال من المسؤولية الأخلاقية ذاتها التي تطالب بها البنات، والكثير من القيم والعادات الاجتماعية تنظر للرجل بأنه غير مسؤول عن سلوكه الجنسي لمجرد أنه وُلِدَ من بدون غشاء، فتلك القيم الأخلاقية تسري على جنس دون الاخر [11].

فمفهوم شرف المرأة كان ولا زال قائما على مفهوم العذرية "غشاء البكارة" ولا يتعدى الجنس، وهذا المفهوم متعمق في فكر اغلبية المجتمع فضلا عن غالبية النساء انفسهن، كما جاء في نتائج البحث الميداني عن معنى الشرف عند المرأة، (فأتفق 99% من نساء العينة على أن الشرف هو غشاء البكارة السليم ، ولم يذكر سوى 8% أن شرف المرأة مبادئ وقيم ومثل عليا، فمعنى الشرف يختلف باختلاف الجنس، ولذلك فطريقة الانتقام له والمحافظة عليه وايضاً عقاب من يفرط فيه أو يثار من أجله، لابد أن تختلف هي الأخرى) [12].

وجريمة الشرف "غسل العار" ظاهرة مقيتة وظالمة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية إذ تُعد من أبشع الجرائم بحق الاناث، والسبب كما في قول الدكتورة افيان النجارة (الحكم وقرار القتل صادر من الأهل واقرباء الضحية من الناس المحبين لها وهي من دمهم ولحمهم وتربت معهم حيث ينقلبون عليها فجأة لسبب خارج عن سيطرتها لينهوا حياتها ويحكموا عليها بالموت دون حق مشروع بسبب شكّهم أو ربما يقينهم لعلاقة هي في الأصل طبيعية وغريزية عند البشر ومتواجدة في تكوين الانسان منذ الخليقة وسر من اسرار الوجود واستمرار الحياة) [13].

ولعل هذه الظاهرة تعطينا صورة واضحة عن إهانة المرأة واحتقارها، وتعنيفها حد القتل، ومما هو جدير بالذكر أن (العراق هو البلد الذي استفحلت به تلك العادة الاجتماعية إلى درجة قَلَّ أن يكون لها مثيل في بلد آخر) [14].

وعلى وفق ذلك (قتل النساء في المجتمع يشكّل خطراً يهدّد النسيج المجتمعيّ، ويصيبه بالتفكّك وانعدام الأمان، ففي معظم الحالات التي تقتل فيها النساء يكون موضوع الشّرف هو ذريعة القاتل، لكي يتهرب من العقاب على جريمته، فقد أصبح الشّرف قناعاً يخفي السبب الحقيقيّ الذي يدفع القاتل إلى ارتكاب جريمته) [15].

فمرتكبي جرائم الشرف يتعامل معهم القانون بشي من التمييز والدلع ويحترم المرتكب لتلك الجريمة والقانون لم يقتصرعلى مجتمع من دون الاخر فقد شمل اغلب مجتمعات الدول العربية فالقانون المصري مثلا في مادة 237 من القانون العقوبات ينص على كل من فاجأ زوجته وهي متلبسة بالزنا وقتلها وقتل من زنى بها يعاقب بالحبس فقط بخلاف العقوبة المقررة للقتل المتعمد وهي عقوبة جنائية الإعدام، ولو كان العكس مثلا زوجة فاجأتْ بزوجها وهو متلبس بزنا بامرأة وقتلتهُ تعاقب بعقوبة الجاني ولا تستفيد من التخفيف الذي استعمل مع الرجل "الزوج" وقد برر أصحاب هذا القانون بأنها طبيعة من طبائع الرجل الشرقي الغيور، وفي المقابل لم يبرروا للمرأة هي الأخرى بوصفها كائناً بشرياً غيوراً، كما انها في الحقيقة اكثر غيرة من الرجل، ولذلك الرجل مباح له والمرأة لا بد ان ترضى بقضاها وبالرغم من ان الجريمة واحدة لكننا نرى العقاب مختلفاً، وهذا التمييز واضح وجلي، ومجحف بحق المرأة وهنا يقول الدكتور خالد منتصر اذا كانت المرأة ناقصة عقل، فلماذا لا يخففون عنها العقوبة انطلاقا من مبدأ ليس على المجنون حرج؟ ام أن المسألة اعتناق تفسيرات عندما تكون في صالح الرجل، واهمال تفسيرات أخرى عندما تكون ضده [16].

أسباب تفشي ظاهرة القتل على خلفية "الشرف" [17]

- تشوّه الوعي الديني في ثقافة المجتمع السائدة، التي تجرّم المرأة لمجرّد الشبهات، ولا تأخذ حتّى بضوابط الشّرع في

هذا الإطار، ممّا أدى إلى التهاون في أمر القتل على خلفية الشرف، واصبح بعض الناس يظن أن هذا القتل يُؤيدهُ الدّين .

- عدم وجود الوعي الكافي في المجتمع، لإزالة الموروث الشعبي والثقافي الخاطئ، والذي يضع المرأة موقع الضحية التي يجب أن تكون كبش الفداء.
- غياب القوانين والتشريعات الرادعة بحقّ كلّ من تسوّل له نفسه إرتكاب مثل هذه الجرائم تحت مسمى الشرف، مما أدى الى استمرار هذه الجرائم وتصاعدها في مجتمعنا؛ كما أن إصدار الاحكام المخففة بحقّ القتلة، يدفع الى تحويل أية جريمة قتل، حتّى لو كان دافعها حرمان الأخت من الميراث تّحول الى قضية شرف.
- التفكك الأسري، وانعدام الرقابة، والمتابعة للأبناء، فبعض الأسر لا تتابع أبناءها، ولا تستمع لمشكلاتهم، بحيث يتورط الأبناء في كثير من المشكلات، التي قد تصل إلى حدّ الانحراف من دون أن يجدوا من يوجههم.
- التنشئة الاجتماعية الخاطئة، التي تركز على التمييز بين الذكور والإناث، منذ مرحلة الطفولة .
- تأييد شريحة من وجهاء المجتمع لهذا القتل، وإعطاؤه شرعية، وعدّه الحلّ الوحيد لمثل هذه الجرائم .

لقد افادتْ الكثير من النساء والكاتبات من هذه الظروف القاسية التي تعانيها المرأة وانتجنْ لنا الكثير من الروايات التي تحمل افكاراً رافضة لهذه القيم فكانت كتاباتهن رصداً للظاهرة وكشفاً عن معطيات الانحياز للرجل من خلال تمرير فعل القتل والرضا به بدعوى غسل العار وهنَّ إذ يكشفن هذا الفعل انما يعدن المجتمع وازدواجيته في التعامل مع الخيانة الزوجية فما يحق للرجل لا يحق للمرأة وهكذا نجد ان سلطوية الرجل هي من تفرض سلطة القانون وتمررها بما يخدم مشاريعه، وقد ظهرت بعض مظاهر الرصد عند لطفية الدليمي التي تحدثت عن التصفية الجسدية للمرأة بدعوى الشرف والحفاظ على العذرية كما في سيدات زحل:

(تعبر جسر الشهداء إلى الكرخ القديمة دونما وجهة تقودك خطاك وحشد من رجال وصبيان يحملون مشاعل من خرق ونفط يلجون زقاقا بعد الجسر وأنت تتجه نحو مستشفى الكرامة وتعلو ضجة وعويل نساء:

ـ قتلوها، قتلوا بدرية، راحت بدرية.

ـ اخرسي يا حرمة لا تنطقي اسم الفاجرة يهمس بصوت أجش رجل ملفع بالكوفية..

قتلها ابن عمها وغسل عار العشيرة، حبلت بالحرام.

خرج من الزقاق رجل يلوح بخنجره المدمى وانهال عليه الرجال بالعناق والتبريك.

ـ سلمت يا رجل رفعت راسنا بين الناس..

يهمم القاتل كلاماً مبهما ويمسح وجهه بطرف كوفيته..

ـ من هي المغدورة؟ يسأل رجل..

ـ بدرية الحلوة بنت جاسم المعمار الم تسمع ببدرية الحلوة؟

ـ يقولون ان من عاشرها هو زوج أمها..

ـ يقولون هو يعمل شرطياً، إي نعم رجل أمها شرطي يعمل في الحكومة..

ـ لا، الذي عاشرها صاحب محل العطور الموصلي) [18].

في هذا النص نرى أنّ الدليمي ترصد عملية القتل هذه وكشف ملابساتها، من خلال التعاطي مع المرأة كونها كائناً خائناً من دون الوقوف على الأسباب التي دفعتها الى ذلك، فهي ترصد وجهة نظر الرجل الذي يفرض سطوته عليها وتحت وصاية العرف والمجتمع من دون التثبت من خلال ايرادها لمفردة يقولون ان من عاشرها زوج امها، فهي تُقتل على الظن لا على التثبيت فـ (الأهالي لا يبحثون عن الفاعل فهم يكتفون بسفك دم الضحية لتبييض العرض دون تحقق، ويساعد على ذلك الجهل والحمق وتحكم العادات القبلية) [19]،هذا اولاً، ثم تشير الى دموية المجتمع من خلال انهيال الرجال على القاتل بالتقبيل وكانهم يضفون شرعية على عملية القتل ويمهدون لأنفسهم فيما إذا ما حصل الأمر نفسه معهم، بل ان اي امرأة تذكر اسم الضحية تعنف "اخرسي يا حرمة لا تنطقي اسم الفاجرة" .

وفي موضع آخر من الرواية ذاتها تعرض لنا الكاتبة مشهداً يتحدث عن واقع اجتماعي يستشري في اغلب المجتمعات العربية ولا سيما المجتمع العراقي وهو النظرة للمرأة بانها كائن ليس لها الحق في ابداء الرأي واختيار الشريك "الزوج" وهي خاضعة لآراء وأفكار واختيارات الأهل القاسية المفروضة عليها ليس لها الا القبول وان رفضتْ الأمر، فالتهمة حاضرة لها وهي الطعن بشرفها، فـ (المرأة في الماضي لا يجوز لها أن تبدي رأيها في اختيار زوجها، فكان أهلها هم الذين يفاوضون في أمر زواجها ويساومون على مقدار مهرها، وليس لها إلا أن تقول نعم، واذا امتنعت عن النطق بهذا الكلمة أحاطت بشتى التهم ونالت العقاب الشديد من ولي امرها) [20].

والنص السردي لسان "حياة" بطلة الرواية قصة الخالة "ام هالة" التي رفضت القبول بأمر اخوها، وتهديدها بالقتل غسلاً للعار:

(هربت من بيت اخيها "خالي" صادق في مدينة الخالص عندما أراد تزويجها لأحد الاقطاعيين ذوي الأصول التركمانية في خانقين وما جاورها، سافرت الى بغداد حين علمت ان عبد الجبار يخشى العودة الى البلدة بعد تهديد اخيها له بإفشاء امر انتمائه لحزب محضور...

حملت حقيبة قماشية صغيرة بها بعض ثياب وقالتْ لامها انا ذاهبة الى حمام السوق فغدا عرس رشيدة ....

وعندما لم تعد للبيت جن أخوها واقسم ان يذبحها ويمحوا عارها واستعان بالإقطاعي الثري من آل عز الدين) [21].

وتناول النص هروب "فتنة"؛ لرفضها الزواج من أحد الإقطاعيين الأثرياء، وأقسم أخيها على قتلها؛ غسلاً للعار الذي تسبب له فيه، على النحو الذي ينتشر في المجتمعات العربية عمومًا؛ لحرص المجتمع على التقاليد التي تحافظ على كرامة الرجل في أهل بيته من النساء، إلا أن الكاتبة عمدت إلى ربط الظاهرة بأسبابها؛ إذ لو هربت الفتاة من دون سبب، لكان ذلك مجلبة للعار على الأهل، بخلاف ما لو هربت؛ فرارًا من البيع باسم الزواج، والحرص على مصاهرة الأثرياء المستّين، وهو ما انمذجت له الكاتبة في الرواية.

جاء رد فعل أخيها تلقائيًا نمطيًا، وخالياً من التعقُّل، ومحاولة انتزاع فتيل الأزمة قبل نشوبها، فلم يحاور أخته، أو يعدِّد لها فوائد الزواج، في إشارة لاعتياد "تسليع" المرأة، وبيعها باسم الزواج في كثير من الأوساط في مجتمعنا العراقي، وهو ما يعكس بدوره أزمة اقتصادية طاحنة مرَّت بها الأسر العراقية، فاختارت الاتّجار في بناتها؛ حلاً للأزمة، وضمانًا لتدفق المال بعد مصاهرة الثري المسنّ الذي لن يطول به العمر، ومن ثم، فقد أمّنت الأسرة ثروة مستقبلية هائلة؛ جرَّاء هذا النمط.

بينما جاءت نفس القضية، في رواية "من يرث الفردوس" مقرونة بالحيلة، رغبة "عواد سليم" في الزواج من "مزينة" رغمًا عن والدها، مما ورد في الحوار الآتي:

(اسمع يا عواد السليم إن جئت تمثل دور البراءة والطهر أمامي، فإن ذلك لن يُجدي في إبعاد التهمة عنك، "مزينة" اختفت منذ ليلة أمس، وأنت تجيء الآن لتخطبها؛ كي تدفع عنك تهمة اختطافها، هذا نبأ عظيم، الآن يحق لي أن أطالبك بها أيها الوالد الكريم، لقد وافقت مزينة على خطبتي لها، فأخفيتها أنت كي تساومني عليها، وان كانت قد اختفت حقًّا، فما عليك إلا أن تبحث عنها، وتغسل عارك؛ بذبحها من الوريد إلى الوريد.

ـ أنتَ عواد سليم تتحدث عن العار؟... اسمع يا رجل، أيدينا لن تلوثها دماء بناتنا ما حيينا، وإذا كان أمثالك قد ألفوا ذبح النساء، فنحن نُجِلُّ نساءنا وبناتنا ..

ـ من أنتم؟ وأي نساء فاجرات تتحدث عنهن ؟ ...

ـ أحذرك من حماقة كهذه، فاذا شئت السلامة، زوِّج ابنتك مني، وإلا فإنني سأفعل ما أراه مناسبًا.

ـ تهددني؟

ـ افهم ماشئت) [22].

المشهد السردي في رواية "من يرث الفردوس" والتي يدور الحديث عن حُصن مهجور"حُصن المسهج" يكمن فيه اسرار ومفاجآت اللاجئون اليه الهاربون من تسلّط الطبقة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمتحكمة في مدنهم ليجدوا حريتهم فيه.

والمشهد السردي عبَّر عن مساومة "عواد سليم" لوالد "مزينة"؛ سعيًا للتشهير به، وإيقاعه في ورطة أمام الأهل والجيران، في مقابل تعريض الوالد بالتاريخ غير الأخلاقي لعواد، وهو ما عمدت من خلاله الكاتبة إلى الإشارة لعدة نقاط متعلقة بقضية غسل الشرف، ودرء العار، منها: حرص المجتمع العراقي على قضية الشرف والسمعة، لاسيما المناطق الريفية فيه، والتي يفوق الاعتزاز فيها بالكرامة عن المدينة والحضر.

كذلك، لجوء بعض الأوساط المتدنية إلى اختطاف الفتيات؛ لإرغام الأب على قبول الأمر الواقع، ومن ثم، تكون المرأة ضحية لمطامع الرجال، وبخاصة إذا كانوا ضالعين في اختطاف النساء وإغوائهن، فضلاً عن تعريض الكاتبة بانتشار هذه الظاهرة في المجتمع العراقي، والمجتمعات العربية عمومًا.

وتخضع المرأة للتهديد بالقتل، في عديد من الأحيان، حال إبداء رغبتها في الزواج من خارج أفراد العائلة؛ إذ نجد لذلك نظيرًا في رواية "من يرث الفردوس"، مما أوردته "لطيفة الدليمي" في حق "هاجر" الفتاة الغجرية التي اضطرّ زوجها إلى الهرب معها بعد زواجهما؛ فرارًا من تهديدات الأهل بالقتل.

وعند تفحص رواية "من يرث الفردوس" يطلع على كم من الاسرار التي تعتري هذا الحصن، فكأنه ملاذ آمن للفرار من الضغوطات الإجتماعية والقوانين الصارمة وهذا ما سجله "أياس النادري" في مذكراته عندما اشار الى قصص الواردين الى هذا الحصن:

(في أوائل الصيف، لجأ الينا شاب وفي صحبته امرأة سمراء جميلة، على كفَّيها بقايا وشم أُزِيل حديثاً، قال: هذه امرأتي "هاجر"، هي من عائلة غجرية، هدَّدوها بالقتل إن تزوجت من غير أهلها، فخطفتُها وأتيتُ بها إلى هنا، كان لكل منا خوفه الخاص، وذكرياته المريرة عن عالم ما وراء الحصن، ولكننا تساوينا ها هنا في حاضرنا وترابط مصيرنا) [23].

وأشار النص السردي إلى خضوع المرأة لمجموعة من العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالدين؛ إذ تخضع لتلك العادات التي (لا ترجع إلى أمر من الله، بل تحظر نفسها من نفسها، وتفترق عن المحظورات الأخلاقية بعدم اندراجها في نظام يقول - عمومًا بضرورة التعفف، ويعلل هذه الضرورة)، ومنها الزواج من خارج العائلة، الأمر الذي يشير إلى وقوع الأنثى في براثن ممارسة تسليعية من نوع آخر؛ إذ يُتاح لها قليل من الاختيار؛ شريطة أن تختار أحد أفراد العائلة، ويكون ذلك للحفاظ على الثروة أحيانًا، أو للحفاظ على نقاء العرق والسلالة، كما في حالة "هاجر"، فتقع المرأة فريسة للاستلاب النفسي؛ لتخييرها بين أمرينّ: الزواج ممن لا رغبة فيه، والبقاء في كنف العائلة، أو أن تحيا غريبة مع زوجها المستقبلي، مهددة بالقتل في كثير من الأحيان.

والكاتبة لم تغفل عن ما تعرضتْ له المرأة العراقية للعنف "غسلاً للعار"، وذلك عند المداهمات الامريكية لبيوت الاسر العراقية، والكاتبة رسمتْ مشهداً مأساوياً في رواية "سيدات زحل"، عن الشخصية "هالة" والتي اعتقلت من قبل قوات الاحتلال الامريكي، بتهمة ايوائها لمسلحين مناهضين للاحتلال الأمريكي، اقتحموا بيتها للاحتماء من ملاحقة القوات الامريكية لهم على نحو ما يبرزه النص، والذي اشرنا اليه في مبحث الثاني من الفصل الاول العنف الجنسي، وكيف جرى اغتصابها بعنف من قبل مجموعة من جنود الاحتلال، إذ تعرضت لعنف جنسي شديد نجم عنه آثار نفسية وصحية، ومن ثم تم الافراج عنها:

(اخبرتني راوية انهم افرجوا عن هالة من سجن ابي غريب وتريد رؤيتي وعلى أن التقيهم سراً في بيتها، ام هالة سربت معلومة ان هالة لم يفرج عنها وأن القوات الامريكية تراجعت عن قرار الافراج، فعلت ذلك حين علمت بنوايا اعمامها الذين ندبوا احد أبنائهم لقتلها غسلاً للعار) [24].

فالنص السردي يشير الى أن غسل العار اقوى من أي مبرر وأقوى من محاربة المحتل نفسه، واقوى من الإدانة لجرائمه البشعة، والكاتبة تُشير الى أن هذه العادة "غسل العار" والثقافة المترسخة موجودة حتى الان على الرغم من التحرر وعلى الرغم من وجود معارضة لكل ما هو مألوف ومعتاد، وهكذا ستبقى قضايا "غسل العار" من أهم القضايا التي شغلت الأعراف الإجتماعية، فالنص اعلاه فيه إشارة الى التكتم والتحفظ على سرية الخبر "الافراج عن هالة"، في ظلّ حالة الترصد لها بالقتل غسلا للعار من قبل اعمامها وأبناء قبيلتها، وحينما علمت أمها بنواياهم حين اوعزوا الى احدهم بقتلها والتخلص منها، اشاعت الام تخبراً مفادة "تراجعت القوات الامريكية في الافراج عن هالة" وذلك لتخليص "هالة" من أيديهم ومن جرمهم، فمثل هذه الحالات التي تحدث مراراً وتكراراً من دون التحقق في الموضوع وتبدو الحاجة إلى أماكن أمنة للنساء المهدّدات بالقتل ضرورة قصوى، لتشعر المرأة بالأمان والحريّة في الحديث عن اوجاعها من دون خوفٍ، أو ضغط، أو رقابةٍ من أحد، فترد "هاله" على دعوات القتل والتخلص من العار:

(لن انتحر ولن ادعهم يذبحوني، فليذهب أخوالي واعمامي إلى الامريكان ويصوبوا نيرانهم إلى واحد أو عشرة منهم إن كان الثأر يعنيهم حقيقة، لن امكنهم مني، لن يقتلوني كما قتل الأمريكي "جوشوا" روحي واغتصبني تلك الليلة المشؤومة كنت في رابع أيام دورتي الشهرية وقد ذبلت وغارت عيناي لفرط النزيف الذي لازمني بسبب فقر الدم) [25].

الكاتبة في النص اعلاه، تصور حجم الخوف والمعاناة الجسدية والنفسية لـ "هالة" وما يقابله من الاستعداد والتأهب لأبناء عمومتها والمجتمع لقتلها، وتحويلها من مجني عليها تستحق الدعم والمساندة إلى متهمة تستحق القتل، وكان الأجدر قتل المغتصب ومحاربته.

وقضايا القتل للمرأة تحت مسمى "الشرف" لا تعكس العنف الممارس ضد المرأة الضحية فقط، وانما تعكس ما هو اهم، إذ تعكس الواقع المزري في ثقافة المجتمع العربي عموماً والشرقي منه خصوصاً، فالجريمة ليست بفعلة القتل، وانما بما يتستر خلفها من سلوكيات مجتمعية طافحة بانتهاك حقها في الحياة على اكثر من مستوى، وليس القتل الا الإعلان النهائي عن حالة الاضطهاد التي تطال الأغلبية الساحقة من النساء.

الخاتمة

القتل على خلفية الشرف جريمة لم تكن وليدة العصر وانما لها امتداد تأريخي كما هو معروف ظاهرة (وأد البنات) تلك الظاهرة الشائعة عند العرب قبل الإسلام وكان الدافع لأرتكابها هو المحافظة على الشرف فمفهوم القتل بدافع الحفاظ على شرف العائلة والقبيلة متأصل في ثقافة وفي الوعي العربي على مرّ الازمان، تظهر النظرة الى شرف المرأة مختزلاً بجسدها وهذه النظرة ما زالت مكرسة لحاضرنا الحالي.

ولجرائم الشرف (القتل غسلاً للعار) ضد المرأة والذي ينعكس سلباً على صحتها النفسية بصوره المختلفة أثر في روايات الكاتبة العراقية لطفية الدليمي، فهي لن تغفل عن قضايا المرأة المعاصرة ، وذلك لأهتمام الكاتبة بالمرأة العراقية ودفاع عنها وعن حقوقها، فهي لم تغفل عن ظاهرة القتل غسلاً للعار في نتاجها الروائي نظراً لما له من آثار نفسية واجتماعية على المرأة.

الهوامش

(1) جرائم بذريعة الشرف، أحمد صوان، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، 2021م، 13

(2) النظام الأبَويّ وإشكاليّة الجنس عند العرب، إبراهيم الحيدري، 13

(3) ينظر: النظام الابوي واشكالية الجنس عند العرب، ابراهيم الحبدري، 17

(4) ينظر: جرائم الشرف: دراسة فقهية مقارنة، أ.د علي الأحد أبو البصل، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، ع9، 1434هـ ، نشر بتاريخ 2013/4/22م، 225

(5) جرائم بذريعة الشرف، أحمد صوان، 127

(6) المصدر نفسه، 123

(7) الوجه العاري للمرأة العربية، نوال السعداوي، مؤسسة هنداوي سي أي سي ، 2006م، 102-103

(8) ينظر: جرائم بذريعة الشرف، احمد صوان، 122

(9) ما وراء الحجاب، فاطمة المرنيسي، تر أحمد صالح، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2006م، سوريا، دمشق، 27

(10) ينظر: الختان والعنف ضد المرأة، د. خالد منتصر، دار العين للنشر، ط1 ،2003م، كورنيش النيل، مصر 189-199

(11) ينظر: قضايا المرأة والفكر والسياسة، نوال السعداوي، مؤسسة الهنداوي سي أي سي، 2002م، 201

(12) المصدر السابق، د. خالد منتصر ، 189-199

(13) أقاصيص بقلم طبيبة، د. فيان نجار، شركة بريطانية، ط1، 2021م، لندن، 75

(14) أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث، منير بكر التكريتي، مطبعة الارشاد، 1976م، بغداد، 189.

(15) جرائم بذريعة الشرف، احمد صوان، 145 .

(16) ينظر: الختان والعنف ضد المرأة، د. خالد منتصر، 240-241.

(17) بتصرف: حالات القتل في المجتمع الأسباب والعلاج، المؤتمر العلمي الدولي السنوي الخامس، جامعة النجاح الوطنية فلسطين 2015م، 25 - 32

(18) سيدات زحل، 220

(19) الختان والعنف ضد المرأة، خالد منتصر، 195

(20) في النفس والمجتمع، علي الوردي، جمع سعدون هليل، دار ومكتبة بساتين المعرفة، ط1، 1432هـ - 2011م، 165 .

(21) سيدات زحل، 261 .

(22) من يرث الفردوس، 61 - 62

(23) من يرث الفردوس، 119

(24) سيدات زحل، 103

(25) سيدات زحل، 267

المصادر

- أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث، منير بكر التكريتي، 1976م، مطبعة الارشاد، بغداد.
- أقاصيص بقلم طبيبة، د. فيان نجار، ط1، 2021م، شركة بريطانية، لندن.
- جرائم بذريعة الشرف، أحمد صوان،2021م، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.
- جرائم الشرف: دراسة فقهية مقارنة، أ.د علي الأحد أبو البصل، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، ع9، 1434هـ ، نشر بتاريخ 2013/4/22م.
- حالات القتل في المجتمع الأسباب والعلاج، المؤتمر العلمي الدولي السنوي الخامس،2015م، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.
- الختان والعنف ضد المرأة :ختان الأناث ليس من شعائر الإسلام، د. خالد منتصر، ط1، 2003م، دار العين للنشر، كورنيش النيل، مصر.
- في النفس والمجتمع، علي الوردي، جمع سعدون هليل، ط1، 1432هـ - 2011م، دار ومكتبة بساتين المعرفة .
- قضايا المرأة والفكر والسياسة، نوال السعداوي، 2002م، مؤسسة الهنداوي سي أي سي.
- ما وراء الحجاب، فاطمة المرنيسي، ط3، 2006م، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق.
- النظام الابوي وإشكالية الجنس عند العرب، إبراهيم الحيدري، ط1، 2003م، دار الساقي، بيروت، لبنان.
- الوجه العاري للمرأة العربية، نوال السعداوي، 2006م، مؤسسة هنداوي سي أي سي.